الباب الثانى

بلاد النهرين (العراق حاليًا)

بدأت أقدم الحضارات فى آسيا الغربية فى وادى نهرى دجلة والفرات . الواقع فى الطرف الشرقى للأرض الخصبة التى أطلق عليها اسم « الهلال الخصيب » وبمرور الزمن تكاثرت رواسب نهرى دجلة والفرات عند المصب . وساعد ذلك على تكوين مساحة كبيرة من الأرض الخصبة الصالحة للزراعة .

وكانت المظاهر الطبيعية فى وادى النهرين تشبه إلى حد كبير تلك المظاهر الموجودة فى وادى النيل . حيث المناخ المعتدل ، وخصوبة الأرض المزروعة نتيجة لرواسب الأنهر ؛ مما شجع القبائل المتنقلة على الاستقرار فى مجموعات بشرية انتشرت شمالا وجنوبًا فى وديان الأنهر ، وساعد الاهتمام بالأرض على تكوين القرى . وظهرت حضارات متتالية لسكان تلك القرى منذ أوائل العصر الحجرى الحديث وقد عرفت أسماؤها بأسماء المواقع التى استقرت فيها .

تم الاستقرار فى الجزء الشمالى من بلاد النهرين فى عصر مبكر ، فمنه كما رأينا ظهرت أقدم الحضارات فى « چارمو » و « حسونة » . كما ظهرت أيضًا فى جهة « موالافات » . ويرجع تاريخ هذه الحضارات إلى أوائل الألف السادسة قبل الميلاد . ولقد نشأت تلك الحضارات فى المنطقة الشمالية لوادى نهر دجلة . وتبعت الحضارات الأولى حضارات أخرى فى جهات متفرقة ظهرت حسب تسلسلها الزمنى فى « سامراء » و « تل حلف » و « أريدو » و « العبيد » ثم « الوركاء » . وتعتبر حضارة « جمدة نصر » التى ظهرت بعد ذلك آخر مراحل تطور حضارة إنسان العصر الحجرى الحديث ، السابق للعصر التاريخى فى المنطقة .

أتقنت القبائل البدائية التى سكنت بلاد النهرين فى المنطقة العليا لنهر دجلة صناعة الأوانى الفخارية منذ الألف الخامسة قبل الميلاد حيث عثر فى « حسونة » على أوان بدائية تعتبر النماذج الأولى لصناعة الفخار (شكل ١٤) .

ولم تكن هذه الأوانى إلا تحارب بدائية ، تمكن الإنسان بعدها من صناعة أوان تمتاز عن الآثار السابقة بزخرفتها بوحدات حيوانية وآدمية ملونة (شكل ١٥ أ) . وتأخذ رسوم الحيوانات والآدميين أحياناً أشكالا هندسية فى زخارف بعض الأوانى التى عثر عليها فى « سمراء » Samara (شكل ١٥ ب) الواقعة فى وادى نهر دجلة . ويرى بعض العلماء أن هذه الحضارة استمرار لحضارة « حسونة » وليست حضارة مميزة . ويرجع تاريخها إلى أواخر الألف الخامس قبل الميلاد .

تقدمت الحضارة فى آثار الفترة التالية . وقد عثر عليها فى قرية « تل حلف » Tell Hellaf الواقعة على نهر الخابور أحد روافد نهر الفرات فى المنطقة الشمالية لبلاد النهرين . ويرجع تاريخ هذه الحضارة إلى ما بين ٤٠٠٠ ، ٣٥٠٠ ق . م وتمتاز آثار هذه الفترة بأوان فخارية متقنة مزخرفة بوحدات هندسية وحيوانية وآدمية تدل على فهم أكثر لهذه الوحدات (شكل ١٦) . وقد عثر بها كذلك على تماثيل صغيرة من الطمى المحروق لأشكال آدمية نسائية تمثل الأمومة لا تدل على علم بتكوين الجسم البشرى (شكل ١٧) . ولقد تسربت هذه الحضارة إلى سورية كما انتشرت فى الموصل .

وتعرف الحضارة التالية التى استقرت فى الجزء الجنوبى من بلاد النهرين فى دلتا الفرات بحضارة « العبيد Al Ubaid » . ويرجع تاريخها إلى النصف الثانى من الألف الرابع قبل الميلاد . وأهم مراكزها « أريدو Erido» (أبوشهرين) ويظن بعض العلماء أن أصل هذه الحضارة ليس امتداداً لما سبقها من الحضارات فى بلاد النهرين . وإنما هى حضارة مستوردة من الهضبة الإيرانية . وقد شيد أصحاب هذه الحضارة مساكنهم من القصب المغطى بالطين . كما وضعوا فوقه أحياناً طبقة من الجص . وكانت آثارهم الفخارية قليلة . وتزين

(شكل ١٤) عنق قدر من الفخار « حضارة حسونة » به نقوش سوداء ، ساعدت على إظهار شكل الإناء كامرأة

١٥ أ

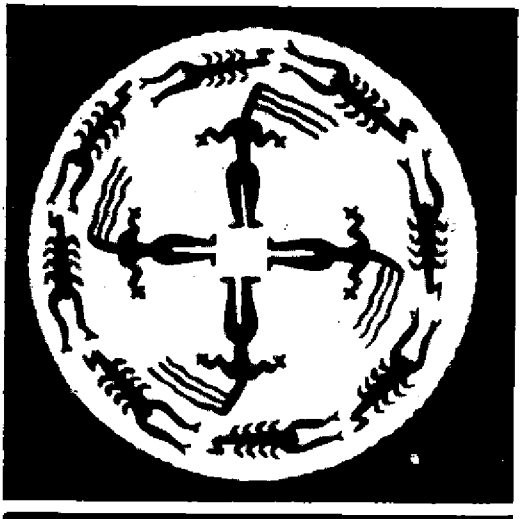

١٥ ب

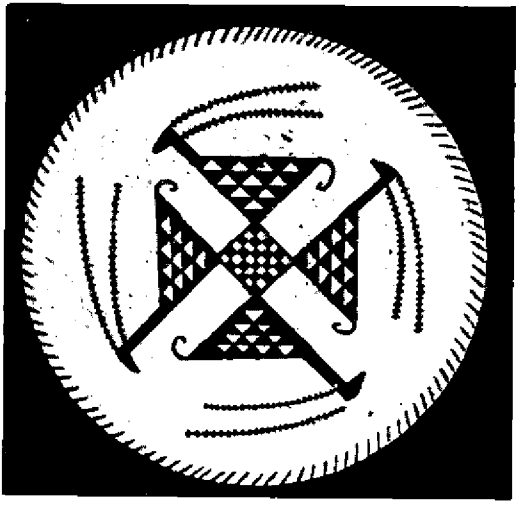

(شكل ١٥ ا ، ب) أوان فخارية من مدينة « سمرا » وبها نقوش ملونة لوحدات آدمية وحيوانية ش (ا) ويأخذ بعضها شكلا هندسيا ش (ب)

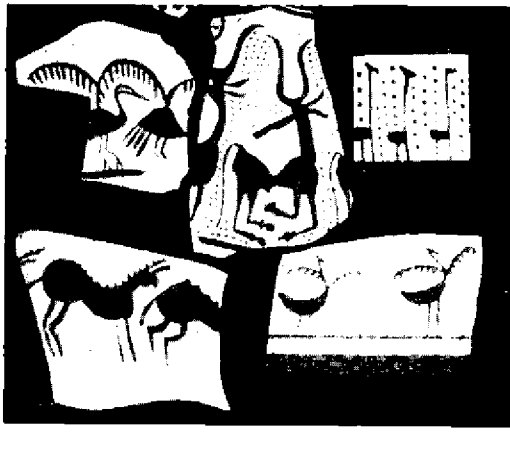

(شكل ١٦) قطع من أوان فخارية بها نقوش حيوانية من مدينة « تل حلاف »

(شكل ١٧) تمثال الآلهة من الطمى المحروق ، ويرمز للأمومة ، من مدينة « تل حلاف »

(شكل ١٨) تمثالان من الطمى المحروق لرجل وامرأة من « عصر العبيد » « متحف العراق »

الأوانى التى عثر عليها رسوم هندسية باللون الأسود . كما عثر من تلك الفترة على عدد من الدمى من الفخار المحروق تمثل نساء ورجالا (شكل ١٨) بأجسام رفيعة تتميز بعرض الأكتاف . أما الرأس فشكلها غير آدمى يشبه الثعبان وقد يكون مرجعه عجز الفنان وعدم مقدرته ، أو قد يكون مقصوداً . ويغطى الرأس مكان الشعر مادة القار . وهذه التماثيل الصغيرة من صنع النازحين الجدد من الشرق إلى منطقة « العبيد » فقط . حيث لا يوجدلها مثيل فى الحضارات الأخرى .

وافق انتهاء الحضارات البدائية السابقة فيضانات كثيرة أصابت الجزء الجنوبى من البلاد وخربتها . ويرجع العلماء تاريخها إلى الفترة ما بين ٣٥٠٠ -- ٣٠٠٠ق.م ولقد ساعدت رواسب الفيضان الكبير[1] الذى غطى جزءاً كبيراً من جنوب البلاد على زيادة خصوبة الأراضى المنزرعة ، مما شجع قبائل أخرى من الشرق على الهجرة إلى الجزء الجنوبى من دلتا الفرات والاهتمام بزراعة الأرض . وسميت

(١) يقرن بعض العلماء هذا الفيضان بالطوفان الذى جاء ذكره فى الكتب المقدسة .

هذه الثورة الزراعية والاهتمام بالأرض . بحضارة « إريك Erech » ومركزها مدينة « الوركاء Uruck » الواقعة شمال مدينة العبيد على نهر الفرات .

انتشرت هذه الحضارة فى جميع بلاد النهرين وحلت محل الحضارات الأولى ، وتطورت وأظهرت تقدمًا كبيراً وامتازت بعمارة فذة ومعرفة بالمعادن . ومن أهم ما وصل إليه الإنسان من تقدم فى هذه الفترة هو ابتكار الكتابة التى كانت على شكل صور منقوشة على ألواح الطين المندى . كما تمكن من صنع الأختام الأسطوانية المنقوشة بمشاهد تمثل الحياة اليومية ، وتشير إلى الأساطير والعقائدالدينية . وكانت هذه الأختام يختم بها سطح اللوحات المبللة فتطبع عليها الصور بشكل بارز . كما كان بهذه الصور علامات خاصة تظهر الملكية الفردية .

وتعتبر القبائل التى نزحت إلى المنطقة الجنوبية وساعدت فى زيادة السكان بعد انحسار مياه الفيضان أكثر تقدمًا من حضارة « العبيد » ، وكان من بينهم السومريون القدماء ، والظاهر أنهم كانوا قومًا على كثير من الحضارة ، حذقوا استعمال العجلة فى عمل الأوانى الفخارية واستبدلوا صناعة الأوانى الفخارية المستوحاة من السلال بعمل أوان ملونة بلون واحد . وكانت الأوانى تزين أحيانًا بالحفر . وهناك ما يدل على استخدامهم للعجلة (التى عرفوها فى صناعة الفخار) فى عربات تجرها الثيران أو الحمير . كما أجادوا صناعة المعادن التى كانت لهم فى الظاهر معرفة بها من قبل .

وقد كانوا على قدر من المدنية ، مكنتهم من زخرفة جدران معابدهم بزخارف ملونة تشبه الفسيفساء ، وجدت آثارها فى معبد فى مدينة « الوركاء » (شكل ١٩) . وتمكنوا من الوصول إلى هذه النتيجة بتغطية الجدار بطبقة من الطين المخلوط بالجير . يثبت فيها صفوف من مخروطات فخارية ملونة بالأبيض والأسود والأحمر .

وكان للمعابد دور مهم فى حياة السومريين الأوائل ، استمر كذلك فى عهد الأسرات ، وكان لكل مدينة إله يعتبر فى نفس الوقت ملكًا لها .

(شكل ١٩) عمود فى جدار معبد بمدينة « الوركاء » مزخرف بقطع من الحجارة الملونة .

وحاكم من بينهم يشترك مع الأهالى فى عبادة الإله . ويعتبر إله كل مدينة مسئولا عن مدينته ، يشيد له معبد فى وسط المدينة يقام فوق مصاطب صناعية مكونة من عدة طبقات من اللبن . ويسمى هذا المبنى الذى يحمل المعبد « الزقورة Zigurat » وأقدم هذه المبانى التى تحمل المعابد عثر عليه فى مدينة « الوركاء » (شكل ٢٠) ويبلغ طول أضلاعه ١٢×٢٠ متراً وبالمعبد غرفة للإله وقاعات أخرى. ويصل المتعبد إلى المعبد عن طريق درجات . ويعرف هذا المعبد باسم « المعبد الأبيض » وذلك لوجود طبقة من اللون الأبيض تغطى الجدران . ولقد زيد عدد المصاطب التى تحمل المعبد فى الألف والخمسمائة سنة التالية مما أعطى المعبد شكلا ضخماً .

وتوضع عادة فى هذه المعابد أوان خاصة بالطقوس الدينية ، وأجملها ما عثرت عليه البعثة الألمانية فى معبد « الوركاء » فى هيكل الإلهة « إنانا Inana » وهذا الإناء[1] مصنوع من الأليستر . وشكله أسطوانى (شكل ٢١)

(١) ولو أن هذا الإناء وجد فى مستوى حفريات الحضارة التالية « جمدة نصر » إلا أنه عثر عليه مكسوراً ، مما يحدو ببعض العلماء إلى نسبته إلى عصر « الوركاء » .

(شكل ٢٠) خرائب المعبد الأبيض بمدينة الوركاء وكان مشيداً على جزء مرتفع يعرف بالزقورة

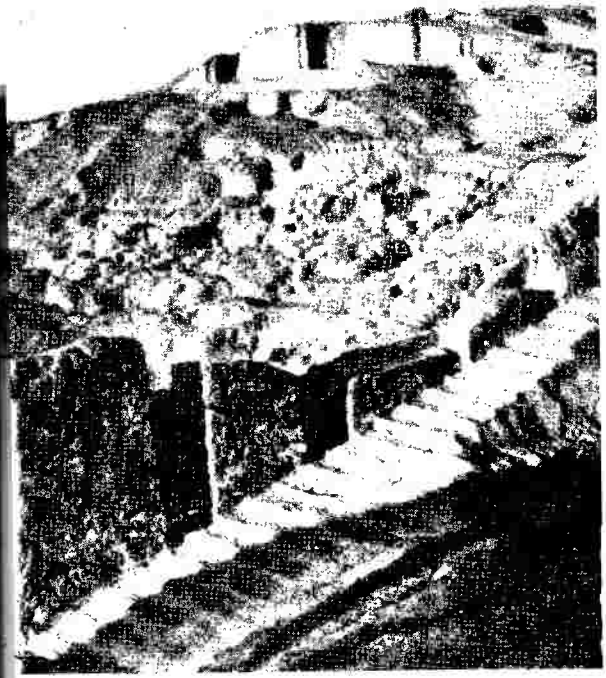

٢١ ب

(شكل ٢١ أ ، ب) إناء من الألبستر عثر عليه فى مدينة الوركاء (وإرتفاعه ١,٢ متر) ويظهر فى شكل (ب) إطار به زخارف تصور حاملى القرابين « متحف العراق »

(شكل ٢٢) رأس من الرخام الأبيض لامرأة عثر عليه بمدينة الوركاء — « متحف العراق »

وبالسطح نقوش غائرة تصور احتفالات دينية موضوعة فى سطور أفقية . فيظهر فى الإطار الأعلى شخص (وربما يكون الحاكم) يقدم ساة بها فاكهة إلى الإله « إنانا » . كما نرى فى السطر الأوسط حاملى القرابين شبه عراة مرسومين من الناحية الجانبية (شكل ٢١ ب) . ويشاهد فى السطور السفلى صف من الحيوانات وآخر من النباتات كناية عن الخصب . ويدل نحت هذا الإناء على براعة ، ومقدرة فنان تلك الفترة فى دراسة الجسم البشرى .

لم يعثر على تمثال للآلهة فى هذه المعابد، ولكن عثر على رأس لامرأة من الرخام الأبيض بالحجم الطبيعى ، ويتسم التعبير الموجود على الوجه بالوقار والعظمة مما حمل بعض العلماء على الظن بأنها تمثل آلهة من آلهتهم (شكل ٢٢) . وتوحى الآثار الموجودة على الرأس بأنها ربما كانت مغطاة بغطاء من الذهب أو النحاس ، وربما كان الجسم — الذى لم يعثر عليه — من الخشب . وكانت العينان والحاجبان محلاة بأحجار الكوارتز ، وتمثل هذه الرأس الطابع السومرى المميز ، وهو التقاء الحواجب المستديرة عند الأنف والأعين المبالغ فيهما .

وتعتبر هذه القطعة الفنية من أحسن آثار النحت السومرى فى عهد ما قبل الأسرات ، ولا تقل فى المكانة عن التماثيل التى أنتجها الفنان فى بلاد النهرين فى حكم الأسرات ، وإذا قورنت برؤوس تماثيل الدولة القديمة فى مصر نجد أنها لا تقل عنها جمالا وعظمة .

يستمر تأثير حضارة « الوركاء » فى حضارة العصر التالى التى تعرف باسم « جمدة نصر » . ويرجع تاريخها إلى حوالى سنة ٣٠٠٠ ق . م . وتنتشر فى هذه المرحلة الأوانى الفخارية الملونة بثلاثة ألوان . كما يقل شأن الأختام الأسطوانية لانتشار الكتابة التى اخترعت فى أواخر عهد « الوركاء » . ويقل الذوق الفنى فى ذلك العهد ويتضح ذلك من نقش على لوحة من البازلت يصور شخصين يصطاد كل منهما أسداً بسهامه (شكل ٢٣) . ويدل النقش على جهل الفنان بمعرفة النسب الصحيحة لأشكاله . وقد يغالى الفنان أحياناً فى استخدام النقوش البارزة فى زخرفة الإناء فيفسد شكله الخارجى

(شكل ٢٣) لوحة حجرية من عهد (جمدة نصر) بها نقش لرجلين يصطادان أسدين – قارن الأسد المصاب بسهمين مع شكل ٩ – « متحف العراق » .

(شكل ٢٤) إناء من الحجر يغطيه نحت بارز لحيوانات مختلفة . « متحف العراق »

(شكل ٢٥) إناء من الحجر عثر عليه بمدينة « أور » من عهد « جمدة نصر » به نحت بارز لأبقار وسنابل القمح . « متحف العراق »

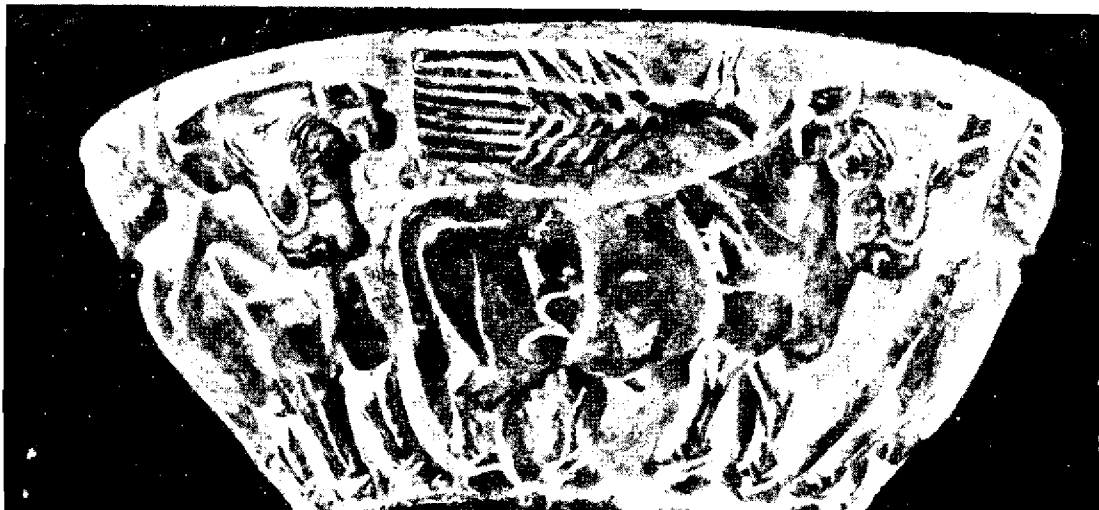

ويبدو هذا واضحاً فى الإناء الحجرى الذى عثر عليه فى مدينة « الوركاء » ، وبه زخارف منقوشة تمثل صوراً لحيوانات برزت رؤوسها من سطح الإناء (شكل ٢٤) ومما يؤكد ضعف الفن فى هذه الفترة : إناء عثر عليه فى مدينة « أور UR » نحت من كتلة حجرية ، وبسطحه نقوش بارزة تمثل ثيراناً وسنابل القمح (شكل ٢٥) .

الأختام الأسطوانية :

وللأختام السومرية أهمية خاصة فى دراسة الفن السومرى البدائى لما تحتويه من نقوش بارزة مصورة . وقد تنوعت المواضيع المختارة فى العهود البدائية المختلفة . وكثرت صور الحيوانات فى بادئ الأمر ، وكانت هذه الحيوانات إما أن ترتب فى صفوف ، أو توضع متماثلة حول محور واحد (شكل ٢٦) . كما حوت بعض هذه الأختام صوراً آدمية وصل الفنان فى رسمها إلى درجة كبيرة من الدقة . وقد انتشرت فى عصر « جمدة نصر » المواضيع الدينية ، ويشاهد ذلك فى ختم نقش بوحدات من الثيران المقدسة لدى الآلهة بجانب سنابل القمح (شكل ٢٧) . وينحط فن نقش الأختام فى أواخر العهود البدائية لاختراع الكتابة . وتبسط الأشكال المرسومة على السطح ، فترسم الحيوانات بخطوط مبسطة تجريدية . ويعرف هذا الأسلوب بأسلوب التطريز[1] (شكل ٢٨) . .

والظاهر أنه كانت هناك صلات وتأثيرات فنية بين مصر وسومر فى العهود البدائية . ويعتقد العلماء أن نهاية عصر ما قبل الأسرات « جرزة » فى مصر يوافق نهاية حضارة « الوركاء » فى بلاد النهرين . وأن بداية عصر الأسرات يوافق « جمدة نصر » . أى أنه عند ما كانت مصر موحدة تحت حكم واحد كانت بلاد النهرين لا تزال فى العصر البدائى .

---

(١) أطلق الأستاذ « هنرى فرانكفورت » هذا الاسم على الأختام التى تبسط رسومها فتأخذ شكل التطريز .

(شكل ٢٦) ختم أسطوانى من نهاية عصر « الوركاء » به نقوش لحيوانات خرافية برقاب طوية متعانقة « متحف اللوفر »

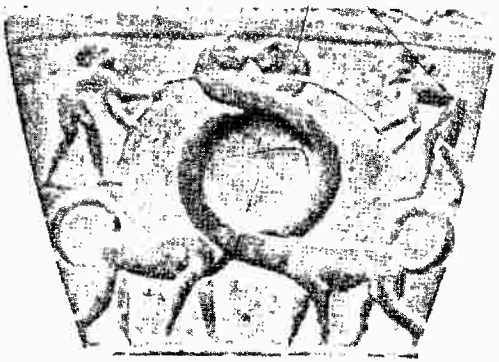

(شكل ٢٦ ا) جزء تفصيلى من لوحة نارمر – فن مصرى قديم .

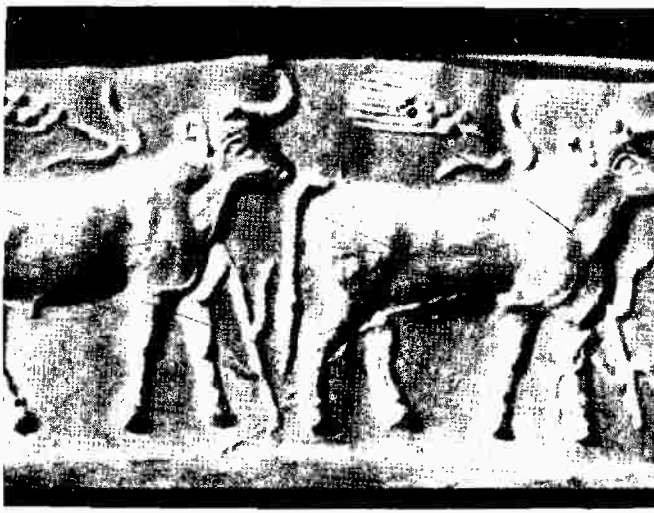

(شكل ٢٧) ختم أسطوانى من عصر « جمدة نصر » به نقش لأبقار وسنابل القمح . « متحف اللوفر » قارن مع (شكل ٢٥)

(شكل ٢٨) ختم أسطوانى عثر عليه فى مدينة « خفاجا » من نهاية العصور البدائية . وبه نقوش لأشكال حيوانية محورة إلى خطوط هندسية « المعهد الشرقى بمدينة شيكاغو » الولايات المتحدة

ويبرهن على وجود الصلات بين الحضارتين تشابه الوحدات فى بعض آثار كل من القطرين . فالرجل الواقف بين أسدين فى نقوش سكين « جبل العرق » (شكل ٨) تشابه ملامحه ، وطريقة تصفيف شعره ، وزيه ، الشخص المنقوش على اللوحة الحجرية السومرية (شكل ٢٣) الموجودة فى متحف العراق . كما يشبه الأشخاص العراة المنقوشة صورتهم على سكين « جبل العرق » (شكل ٢٨) . الأشخاص العراة المنقوشين على الإناء الأسطر الذى وجد فى « الوركاء » (شكل ٢١ ب) . كذلك صورة الأسد المفروس فى طهره سهمان الموجودة فى لوحة الصيادين المصريين (شكل ٩) تشبه صورة الأسد المنقوشة فى اللوحة السومرية (شكل ٢٣) .

وإذا ما وصلنا إلى نهاية عهود ما قبل الأسرات ، وبداية عهد الأسرات فى مصر ، نجد أن التأثير الفنى ما زال مستمراً فى بعض الوحدات . فوحدة الحيوانين المتعانقين التى لم نجد لها تفسيراً فى لوحة نعرمر (شكل ٢٢ ب) ، يشاهد لها شبه فى الأختام السومرية المصنوعة فى نهاية عصر «الوركاء» (شكل ٢٦) كما يتكرر التشابه فى وحدة الإلهة «حتحور» المشكلة على هيئة بقرة بوجه آدمى فى لوحة « نعرمر » (شكل ١٣) مع رأس من النحاس لثور بوجه آدمى عثر عليه فى مدينة « أور » (شكل ٢٩) .

(شكل ٢٩) رأس من النحاس لإله بقرنين عثر عليه فى المقبر الملكية للملوك سومر بمدينة « أور »

والظاهر أن هذه الوحدات كان مصدرها بلاد النهرين ؛ حيث إن بعض هذه الوحدات ظهرت فى الفن المصرى فى عصر ما قبل الأسرات . وفى الأسرة الأولى فقط ، واختفت بعد ذلك من مصر فى حين أنها استمرت فى الظهور فى بلاد النهرين ، مثال ذلك وحدة الرجل الواقف بين أسدين ، ووحدة الأسد المهاجم للثور الموحودين على سكين « جبل العرق » . والواقع أنه ليس هناك ما يمنع وجود تسرب بين وحدات البلدين . وقد يكون سبب هذا التأثير وجود صلات ودية بين الجزء الشمالى من القطر المصرى وبلاد النهرين . أو من تأثير بعض النازحين من الشرق .

ويلاحظ أنه بجانب التشابه فى الوحدات الموجودة فى آثار كل من المنطقتين فى هذه الفترة . تخترع الكتابة أيضًا فى نفس الوقت على هيئة صور فى كلا القطرين ، مما حمل العلماء على تأكيد وجود صلة فنية بين أهالى مصر وسومر فى هذه الفترة الزمنية فقط . حيث تتوقف الوحدات المتشابهة بعد ذلك حين تدخل المنطقتان فى العصور التاريخية ، ويستقل كل فن بطابع خاص به فى كل من فنون العمارة والنحت والتصوير . وبانتهاء الحضارات البدائية تدخل الحضارة السومرية فى المرحلة التاريخية ، وتتكون الأسرات الملكية التى تبتدئ بحكم ملوك الأسرة الأولى فى « أور » وأمراء لجش Lagesh » فى « تلو Tello » .

ولقد أظهرت الحفريات التى تمت فى جزيرة فيلكه بالكويت وجود رحلات تجارية بين بلاد النهرين والجزيرة ، حيث عثر على عدد من الأختام الأسطوانية منقوشة بنقوش مصورة تشبه كثيراً الأختام السومرية . كما عثر على ختم مستدير منقوش بصورة البطل السومرى جلجامش . وربما تكشف عمليات التنقيب المستمرة فى هذه المنطقة على أصل الجنس السومرى الذى سكن جنوب العراق .